

المخطوطات المهاجرة في مكتبة تيمسي

دراسة كوديكولوجية

و. مصطفى طويبي *

نقصد بالمخطوطات المهاجرة جملة المخطوطات الموجودة في مكتبة معينة، والتي وفدت إليها من بلد آخر من بلدان المعمور.. وهجرة المخطوط في صورتها السليمة هي الانتقال الكلي للمخطوطة في وعائها المادي ومضمونها.. ثم إننا قد نتحدث عن هجرة المخطوط بوصفه محتوى عبر الإقراء، أو السماع، أو النسخ، أو الإجازة، أو ما شابه هذا من وسائل نقل المعرفة بالشكل الذي كان معروفا في القديم..

ولا ننسى أن العلماء الذين كانوا يصنفون الكتب في هذا المجال العلمي أو ذاك لم يكونوا مستقرين دائما في بلدانهم بل إن هجرة العلماء وطلبة العلم كانت ديدنا يسم الأعصار السالفة، وكان الألى يعودون منهم إلى أوطانهم الأصلية يعودون محملين بما اقتنوا من نواذر الأسفار.. يقول أحمد شوقي بنين في هذا الباب: "واشترى الشيخ محمد بن عبد السلام الناصري المتوفى سنة 1240هـ في

* أستاذ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة ابن زهر ، (المغرب)

رحلته إلى استانبول مؤلفات منها كتاب "الكمال" للحافظ عبد الغني المقدسي في مجلدين بثمان بخس، وذلك برسم خزانة الزاوية. وكانت الكتب تقتنى، حسب صاحب "المزايا.. "من مكة، والمدينة، ومصر، وطرابلس، وتونس..¹.

فالعالم مرتبط بالشيخ، والشيخ موزعون في كل البلدان الإسلامية بصرف النظر عن الحدود الجغرافية والسياسية .. وهكذا فإننا إذا ما أنعمنا النظر في كل المكتبات التراثية في العالم ألفينا أنها مكونة من خليط غير متجانس من الدفاتر والمخطوطات التي تشهد صورها المادية ومعطياتها الحفرية عن حضارات متنوعة وأعراف عديدة.. فالمخطوط هو أولا صورة عن الكاتب وثقافته، وهو من جهة أخرى انعكاس لواقع اقتصادي واجتماعي محدد، تعكسه بنيته المادية الصميمة...

ومكتبة تيدسي التي ستتحدث عنها، بحول الله، في هذه المشاركة، هي كسائر المكتبات التراثية الأخرى المعروفة بنوادير الدفاتر والأسفار.² وهي مرتبطة في نشأتها بالدولة السعدية. قال عنها وعن زاويتها المختار السوسي رحمه الله: "... نسبة إلى قرية تيدسي، وهناك كانت بيعة الأول من السعديين، فمر هناك مجد عظيم وعلم وأدب، ولا تزال خزانة الأسرة محفوظة، وقد انقرض العلم أخيرا هناك فصارت الخزانة من الموءودات."³

وتكونت المكتبة المذكورة من النسخ، والهبات، والشراء، والوقف...وتضم من كل فن طرف؛ ففيها المصاحف، وكتب الآداب، والبلاغة، والنحو، والعروض، والتراجم، والتاريخ، والتصوف، والتوحيد، والفقه، وأصول الفقه، والسيرة النبوية

إلخ.. وتحدها الآن ثلاث قبائل مشهورة هي سندالة من الجهة الشرقية والجنوبية، وهوارة من الشمال، وإدامنو التابعة لإقليم اشتوكة أيت بها من الغرب .
وقد أسسها سيدي محمد بن مبارك الأقاوي المتوفى في أوائل القرن العاشر الهجري، وكان قد أمر قبائل سوس بمبايعة السعديين وتوجد الآن في مكانها التاريخي المذكور. وهي تبعد عن مدينة أكادير بحوالي ستين كيلومترا ، ودون زيارتها صعوبات كثيرة استمرت إلى عهدنا نحن ⁴ .

وتحدث عنها المختار السوسي في المنتصف الأول من القرن العشرين قائلا :
"وأذكر أنني كنت تواعدت معه -مسعود الوقاوي⁵ - أن نزور تيدسي لرؤية خزانته ، واشترط علي أن لا يركب إلا بغلته ، فإذا به أرسل إلي أن السيد عبد السلام القيم على الخزانة رفض الزيارة ، محتجا بأن فلانا الدرقاوي لا يدخل مقامنا نحن أصحاب مولاي أحمد.."⁶

والراجح أن صعوبة الاستفادة من هذه المكتبة إنما يعود إلى تقيد الأحفاد التيديسين بوقفية الفقيه عبد السلام بن القائد الحنفي التيدسي الذي حصر الاستفادة من المكتبة على التيديسين فقط دون غيرهم ..

جاء في هذه الوقفية ما يلي : "بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم: أشهدنا بحول الله وقوته الفقيه العلامة السيد عبد السلام بن القائد الحنفي التيدسي السندالي أنه حبس خزانته للكتب المشتملة على أنواع الفنون العلمية على العلماء والطلبة من أبناءه وأبناءه ما تناسلوا وامتدت فروعهم دون غيرهم من الأبناء . فإن قضى الباري جل علاه

بانقضاء العلماء منهم، فليتولى حفظها وصيانتها من أظهر الله فيه الصلاح لحفظها وصيانتها إلى أن يظهر الله فيهم من فيهم الأهلية بفضله. وأنه يوصي ويؤكد جميع من صار من الأولاد آمنا عليها أن لا يعير لأي أحد كيفما كان نوعه، وكيفما كانت مرتبته كتابا ولو ورقة واحدة منه. فمن رغب من علماء المسلمين المطالعة والاستفادة فلا يرى بأسا أن يسعدوه ويقفوا معه إلى أن يشفي غليله. ويوصيهم كذلك أن يتقوا الوعيد الشديد الوارد في كتمان العلم. وقد جعل هذا الحبس حبسا تاما مؤبدا سرمدًا إلى يوم الدين. فمن سعى في تغييره، أو تبديله، أو تحريفه، فالله حسيبه وسائله وولي الانتقام منه " وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون⁷ "شهد على إشهداه في تاريخ جمادى الأولى عام 1332 هـ عبد الله بن عبد الرحمان التمللي رعاه الله وعبد ربه الحسن بن محمد وفقه الله آمين.⁸

والمكتبة الآن في أحلك أيامها، إذ تراجع عدد دفاترها، فلم يبق منها إلا حوالي سبعمائة وثلاثين مخطوطا، وطالتها الرطوبة، وبلغت فيها الأرضة والعث مبلغا خطيرا في الافتراس..وهي تضم مخطوطات محلية النسخ أو التأليف من مثل:

- كتاب قواعد الإسلام لسليمان بن خلف الباجي الذي انتسخه في الزاوية التيدسية أحمد بن محمد بن محمد بن مسعود التيدسي في ذي الحجة عام 996هـ،

- ومتمن الرسالة القيروانية، التي انتسخها الشيخ مبارك بن إبراهيم التيدسي، وأيسر المسالك إلى ألفية ابن مالك لمحمد العربي الأدوزي⁹،

- ونسخة من الأسماء المبهمة انتسخها علي بن أحمد التشكدلي في 1293هـ،
- ونسخة من كتاب المعرفة على مراد الربوية،¹⁰ الذي نسخه إبراهيم بن سعيد بن داود الشطاحي سنة 984 هـ ،
- ونسخة من مؤلف في العقيدة¹¹ ، لأبي عثمان بن سعيد بن أبي عبد الله العقباني المنتسخة سنة 909 هـ،
- ودفاتر أخرى عديدة تعاورت على نسخها شيوخ الأسرة التيدسية نفسها، مثل عبد القادر بن محمد بن محمد التيدسي، ومحمد بن أحمد التيدسي، وأحمد بن أحمد التيدسي .. وتضم، من جهة أخرى، مخطوطات أجنبية وفدت إليها تحديدا من البلدان الإسلامية الأخرى من مثل الجزائر، وتونس، وليبيا، وتركيا، وفلسطين، ومصر، وإيران، والأندلس، والسودان..
- ومن هذه المخطوطات المهاجرة في هذه المكتبة العتيدة أذكر نسخة من كتاب شرح جمع الجوامع في أصول الفقه والدين¹² لجلال الدين محمد بن أحمد المحلي الشافعي (ت791هـ/864م)، ونسخة من صحيح البخاري¹³ لمحمد بن إسماعيل البخاري، نسخها عبد الله بن محمد بن عبد الله النبھاني، ونسخة من فتح الباري لابن حجر العسقلاني¹⁴ ، ونسخة من تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الحكم¹⁵ ، لبرهان الدين أبي الوفاء إبراهيم بن فرحون (ت 799 هـ)، ونسخة من شرح عقيدة السنوسي¹⁶ ، لمحمد بن محمد بن إبراهيم التلمساني (ت 897 هـ /1492)، ونسخة من صغرى السنوسي¹⁷ لمحمد بن يوسف السنوسي

(ت895هـ)، ونسخة من منظومة التوحيد¹⁸ المعروفة بـ " الجزائرية في العقائد الإيمانية"، للشيخ الإمام القدوة أبي العباس أحمد بن عبد الله الجزائري، (ت884هـ 1479 م)، ونسخة من شرح مورد الظمان، لمحمد بن إبراهيم الشريشي (ت718)، ونسخة من أحكام السهو في الصلاة¹⁹، لأبي الحسن علي بن يحيى المالقي، وغير هذا كثير من عيون الدفاتر الموجودة في هذه الخزنة العتيدة التي كانت منارة العلم على عهد السعديين، كما ذكر ذلك المختار السوسي رحمه الله، ومازالت إلى الآن قبلة للباحثين والأساتذة المتخصصين في التراث ..

ونحن، في هذه المشاركة، إنما سنركز على عينة من الأوعية ذات الأصل الجزائري، توخيا لإضاءة موضوع هذا الملتقى العلمي الذي ينفذ الغبار عن إسهام الجزائر في بناء حضارة إسلامية عتيدة من خلال الكتاب المخطوط، وقد انتخبنا نماذج مما ناوله إيانا الفقيه المصطفى بن العربي الأنصاري التيدسي وفقه الله، فنحن سنتحدث بحول الله عن نسخة من منظومة التوحيد لإمام أبي العباس أحمد بن عبد الله الجزائري²⁰، ونسخة من تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الحكام، لبرهان الدين أبي الوفاء إبراهيم بن فرحون²¹ (باعتبار أصل هذا الرجل)، ونسختين من صغرى السنوسي²²، ونسخة من شرح عقيدة السنوسي لمحمد بن محمد بن إبراهيم التلمساني، وإنما اخترنا هذه النماذج لانتفاء معلومات النساخة في حرد المتن، ولاختلاف الخط الذي كتبت به عن الخط السنوسي المؤلف في هذا البلد الموجود في جنوب المغرب، فأيقنا أنها مهاجرة علما أن الهجرة عندنا تنطبق على المحتوى، وعلى الوعاء، وقد ننطلق من أصل المؤلف كما

هو الأمر بالنسبة لابن فرحون مثلاً .. وسيكون تناولنا لهذه المادة مبنياً على حفريات الكتاب المخطوط أو ما يسمى بعلم المخطوطات ، وقبل أن نتحدث عن هذه العينة من النسخ الوافدة إلى هذه المكتبة نود أن نلقي نظرة موجزة عن علم المخطوطات.

مفهوم علم المخطوطات :

إنه المرادف للمصطلح المعرب " كوديكولوجيا"، Codicologie وقد عرفناه في معجم مصطلحات المخطوط العربي بما يلي: " علم المخطوط بالمفهوم الحديث هو دراسة المخطوط باعتباره قطعة مادية، والمصطلح من وضع العالم الفرنسي ألفونس دان (A.Dain) والكلمة مركبة من اللفظة اللاتينية " كوديكس " Codex أي كتاب ومن اللفظة اليونانية " لوجوس " بمعنى دراسة وقد دخلت المعجم الفرنسي سنة 1959م²³. وقد يراد به عند القدماء مفهوم الوراقة²⁴، أو كل ما يتعلق بالمخطوطات من كتابة، وصناعة، وتجارة، وترميم، وما إلى ذلك ..

إنه العلم الذي يتناول الكتاب المخطوط من حيث مكونات الورق، أو المادة المكتوب فيها، والطبي وصناعة الكرايس، والترتيب (أي مسألة كتابة النص في علاقته الزمنية بطي الفرخة أو صناعة الكراسية)، وتركيب الصفحات (أو دراسة التناسبات الممكنة بين درج أو أدراج النص وطرر الصفحة)²⁵، والخزم، والتسطير، والنمنمة، والزخرفة، والتذهيب، والتسفير، أو التجليد بتعبير أهل المشرق ...وهو من جهة أخرى العلم الذي يعنى بالنساخت في المخطوط

transcription بكل ما تحمله كلمة "نسخة"²⁶ من معنى، إذ إن هذا المصطلح يعني بداية النص، ونهاية النص، وحرد المتن، والوقف، والإجازة، والقراءة، وقيد التملك، وقيد البيع، وقيد الشراء، والأدعية، والعبارات الشاردة، والفوائد، وقيد الصيانة، والسرلوحات أو الفضاءات الاستهلاكية المزخرفة والمكتوبة، وعناوين الأبواب، وعناوين الفصول، وأنواع التزقيم، والحك، والمحو، والطلس، والإحالة، والتشطيب، وما إلى ذلك.. وأود أن أشير إلى أن هذا العلم إنما يكتمل باتساع رقعة المادة المدروسة، ويتراجع إلى مستوى الوصف بعكس ذلك..

وقد زرت من جديد مكتبة تيدسي في بداية شتنبر 2007 م، برفقة الفقيهين أحمد فاضل وإبراهيم أيت بولكسوت²⁷، ولم أتمكن من الوقوف بالمخطوطات ملء الوقت الذي يكفي، كما لم يرخص لي بالتصوير لبعض الصفحات اللافتة للنظر، وإنما كان القيم يحمل إلي المخطوط تلو المخطوط وفق الطلب، وهو الأمر الذي يفسر اقتراب هذه الدراسة من الملاحظة الوصفية الأولية..

التناول الكوديكولوجي للنسخ المدروسة :

الأصل في تناول الكوديكولوجي أن يحصل هناك تركيب بناء على أقصى ما يمكن من النسخ. فالدراسة المادية للمخطوط تنطلق من الملاحظة لأكثر نسبة من المخطوطات، لتصل إلى بلورة القوانين التي تفسر خصوصيات هذه المجموعة أو تلك من المخطوطات، بيد أن مكتبة تيدسي هي مكتبة عائلية منحصرة على أحفاد العائلة التيدسية.

لذلك فإن القيم الحالي السيد المصطفى بن العربي الأنصاري التيدسي كان محاصرا بتوصيات العائلة وبتوقيقاتها، وبأداء واجبه المدروس تجاه الصحاب الذين يزورون المكتبة الجزائرية في العقائد الإيمانية في التوحيد لأبي العباس أحمد بن عبد الله الجزائري: هو كتاب ضمن مجموع مكتوب على ورق قماشى لين و صامد يعود إلى حوالي ثلاثة قرون، نلاحظ فيها احترام المساحة المكتوبة lajustification من خلال تركيب الصفحات، إذ إن الطرة الداخلية هي الصغرى، تليها طرة الرأس، ثم الطرة الخارجية، وأخيرا طرة الذيل أو الطرة السفلى، مما يدل على أن نسخ هذا الكتاب قد تم بواسطة الآلة الوراقية المعروفة قديما بالمسطرة (بضم الميم وفتح السين وتشديد الطاء وكسرها)، والخط يجمع بين مميزات الخط المغربي الجزائري²⁸ (المشتبه في أغلب جزئياته بالخط المغربي الفاسي)، والخط الصحراوي المائل إلى الثخانة، ويتشكل الكتاب من خماسيات، وظهرت المنظومة في حوالي عشرين صفحة متشابهة في مساحتها المكتوبة، إذ هي عادة عبارة عن درج واحد للكتابة لا يفصله إلى صورة الفراغ بين السطرين.. وليس هناك ذكر للناسخ وتاريخ النسخ، ونلاحظ فيها وجود طرر على هامش الأبيات هي عبارة عن لواحق للمنظومة من مثل هذا البيت الموجود في الهامش:

يذاد عنه أناس لا خلاق لهم قد قابلوا الدين بالتغيير والبدل
وتسمى هذه الإضافات في الهوامش باللحق، وتدرس في إطار التقاييد النصية للنساختة. وقد كتبت فصول هذه المنظومة بالأحمر، وضبط رويها الذي هو حرف اللام بشكل ثخين، والمنظومة في 360 بيت من بحر البسيط أولها:

قال الشيخ الإمام الفقيه قدوة المتقين الولي العلامة عالم الأعلام السيد أبو العباس أحمد بن عبد الله الجزائري رحمه الله ورضي عنه ونفعنا به وبأمثاله بمنه وفضله...

وآخرها:

إن النوى جاءت غير واحدة	كذا الأوامر لا تحصي لممثل
فلازم العلماء العاملين به	واسلك ... وإن جهلت سل
وثق بمولاك لا تبغي به بدلا	فما عن الحق جل الله من بدل
واضرب عليه بصدق فهو ذو كرم	هذا السبيل إليه أقرب السبل
وقل إلهي يا من لا شريك له	مالي سواك عليك اليوم متكل
فامنن علي بتوفيق ونيل تقي	منك الهداية للتوفيق للعمل

ومن فصول هذه المنظومة القيمة، حكم التقليد وقواعد التوحيد، وفي أول الواجبات، والاستدلال بالنظر في المخطوطات، وفي ما يجب من الوجود للإله المعبود، وفي وجوب الوحدة لخالق البرية، وفيما يستحيل على الولي الجليل، وفي التنبيه على ما يوجب التشبيه، وفي ثبوت صفاته تعالى المعنوية، وفي الحياة والسمع والبصر، وفي العلم، وفي الإدارة إلخ، وقد كتبت هذه العناوين بلون ثخين أحمر مخالف للمنظومة، وجاء في بداية النص ما يأتي:

الحمد لله وهو الواحد الأزل	سبحانه جل عن شبه وعن مثل
فليس يحصى الذي لله من نعم	أجلها نعم الإيمان بالرسول

من ذا من الخلق يقضي شكر واهبها لو كان يشكر طول الدهر لم يصل
ثم الصلاة على خير الورى أبدا وصحبه مع سلام طيب حفل
وبعد فالعلم بالتوحيد مفتـرض بالاحتلام وعقل غير مختـبل
وقد استعمل في ترقيم هذه المنظومة، التي هي الكتاب الخامس ضمن
مجموع، نظام التعقيية أو الرقاص أو الوصلة، وهو نظام معروف منذ القديم يتجلى
في كتابة أول الصفحة الموالية في أسفل الصفحة السابقة.. وكانت تكتب كلمة أو
كلمتان في ربط صفحات هذه المنظومة بشكل أفقي... وهناك إلى جانب هذه
المنظومة كتب أخرى في هذا المجموع منها كتاب الإعلام للقاضي عياض،
ومنظومة في الفرائض، ومنظومة في التوحيد، وكتاب في قواعد الإسلام لأبي الوليد
الباجي...

صغرى السنوسي لمحمد بن يوسف بن عمر بن شعيب السنوسي...

توجد من هذا الكتاب المعروف بأمر البراهين في مكتبة تيدسي نسختان؛ نسخة
عريقة ضمن مجموع، والراجح أنها الأصل²⁹، وأنها وافدة من بلد آخر، ونسخة
محلية النساخة³⁰، وهي مأخوذة، فيما يبدو، عن النسخة الأولى، ونلاحظ أن
هذه النسخة الأولى قد عميت بعض كلماتها، واستغلت بعض حروفها، في حين
أن النسخة الثانية تامة وواضحة بشكل لافت للنظر، وانطلاقا من أن القاعدة
الفيلولوجية تحث على أن النص المستغلق والمبهم أوثق من النص المصحح
والواضح، وأن الدرس الفيلولوجي الحديث رفض الأخذ بالمفهوم التقليدي للنسخة
الأم، ورفض الأخذ بالمقابلة بالشكل الذي يصنعه المحققون العرب، وجعل النسخة

الجيدة هي النسخة المليئة بالأخطاء يقول "ألفونس دان" : "ليس هناك أحسن نسخة، وإذا ما شئنا البحث عنها فهي تلك التي تترك الأخطاء بدون تصحيح، وتجعلنا نعود إلى المرحلة الأولى للتغييرات..."³¹.

وفي الاتجاه نفسه، يكون الناسخ العالم أسوأ بكثير من الناسخ ذي الثقافة الأولى الذي يتمسك بقراءة النموذج حرفاً حرفاً... فإننا نعتقد بأصالة النسخة الموجودة في المجموع الأول³²، والمفتقدة إلى اسم الناسخ وتاريخ النسخ، جاء في أولها:

" قال الشيخ الفقيه العالم العلامة الولي الصالح سيدي محمد بن يوسف السنوسي رحمه الله ونفعنا به آمين والحمد لله والصلاة على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين وإمام المرسلين ورضي الله تعالى على أصحاب رسول الله أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أعلم أن الحكم العقلي ينحصر في ثلاثة أقسام الوجوب والاستحالة والجواز..."

وفي النسخة المأخوذة عنها نجد تعبيراً مخالفاً فعوض صيغة الأمر "اعلم أن الحكم العقلي.." نجد التعبير الآتي "وبعد: فهذه جمل مختصرة يخرج المكلف بفهمها إن شاء الله تعالى من التقليد المختلف في إيمان صاحبه إلى النظر الصحيح المجمع على إيمان صاحبه، وذلك أن تعلم أولاً.."، وفي اللحظة التي نجد فيها النسخة الأولى مفقتدة إلى اسم الناسخ وتاريخ النسخ، فإننا نجد ما يلي في النسخة الثانية: "كملت بحمد الله وحسن عونه في يوم الأحد التاسع والعشرين زمن صفر عام خمسة وثلاثين وألف بتيدسي على يد كاتبه لنفسه ولمن شاء الله

من بعده عبد المومن بن إبراهيم بن مسعود بن موسى بن محمد بن الحسن،" ثم إننا نلاحظ أن مقياس النسختين مختلف؛ فالأولى مقياسها هو 15 x 19 سم، والثانية مقياسها 18x22سم ، مما يعني أن المحترفين لصناعة الكراريس مختلفان، ولا ينتميان للمنطقة نفسها.

ثم إن الخط الذي كتبت به النسختان مختلف؛ فالأول صحراوي ثخين مشكول وملون، مما يعطي الانطباع بأنه منحدر من الصحراء الجزائرية الكبرى أو من موريتانيا، والثاني مغربي سوسي دقيق ومشكول... أما عن نوع الكراريس في الكتابين، فالكتاب الأول مكون من خماسيات، وهي كراريس مكونة من خمس صفائح مزدوجة، وهي معمول بها في صناعة المخطوط العربي، في حين أن الكتاب الثاني مكون من سباعيات وهي كراريس مكونة من سبع صفائح مزدوجة، مما يدل أن طريقة الصنع مختلفة ويؤكد انحدارهما من محترفين مختلفين.

ونلاحظ أن تركيب الصفحات قد تم احترامه في النسخة المهاجرة بشكل لافت للنظر، مما يدل على أن النساخة قد تعقبت المسطرة،³³ فهناك أولا الطرة الداخلية le petit fond، وهي أصغر الطرر كلها، ثم تأتي بعدها طرة الرأس la marge supérieure، ثم الطرة الخارجية la marge de gouttière وأخيرا تأتي طرة الذيل، la marge inférieure، وهي أكبر الطرر.

وفيما يخص التفسير فنحن نلاحظ أنه لا أثر للتفسير الأصلي في هذا المخطوط، بل هناك فقط تفسير دخيل مفتقد إلى خصوصيات التفسير الوراقى المزود باللسان والترنجة... وكتب في نهاية الكتاب مجموعة من الفوائد النصية

الجديرة بالدراسة في إطارها السوسيوثقافي، منها: "... من امتلأ بطنه خاف منه الضرر، فليضع يده عليه، ويقول الليلة ليلة عيد ورضي الله عن سيدي أبي عبد الله القرشي، فإنه لا يضره مجرب صحيح.."

ومنها: "فائدة لدفع ورم الأسنان، ولكي يثبت اللحم على الأسنان ويصقلها يؤخذ المصاصة ومثله من العسل يطبخان حتى لا يبقى إلا العسل، ويستاك به في طنوفة من دعة على الريق، أو يستاك بالشب اليماني في الصوف المودح.."
ومنها: "لجميع أورام الجسد يسحق السنوج ويعجن بالخل ويربط عليه وكذلك أورام الإبط وبين الفخذين..."

إن هذه التقايد النصية، لها أهمية سوسيو ثقافية قصوى، كما سبقت الإشارة إلى ذلك.. فنحن بإزاء نخبة مثقفة حريصة على مادة الكتابة، وشحيحة في استعمالها، وفضولية في القول في جميع الميادين العلمية بالشكل الذي تقتحم به ميدان الطب دون احتراس.. وكأنما نحن بإزاء ثقافة موسوعية كاسحة لا وجود فيها للتخصص، ثم إننا نسجل ندرة المصادر الطبية في اللحظة المدروسة، وهذا أمر معروف إذا ما قابلنا بين العلوم الشرعية واللغوية، والعلوم الطبية، والرياضية، والكيميائية، والهندسية، التي كانت شبه غائبة..

إن هذه النسخة، إذن، ناطقة بمعطيات حضارية لافتة للنظر.. وستكون أكثر فائدة لو حصلت هناك دراسات مونوغرافية شاملة للتفسير والنسخة والزخرفة وغيرها من المهام الوراقية حسب البلدان والعصور، بالشكل الذي صنعه المنوني رحمه الله في تاريخ الوراقة المغربية³⁴.

شرح عقيدة السنوسي لمحمد بن عمر بن إبراهيم التلمساني³⁵

وهو الكتاب الأول ضمن مجموع، أوله: "ويقول عبد الله تعالى محمد بن عمر بن إبراهيم التلمساني غفر الله له ولوالديه ولأحبته بجاه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

الحمد لله المنفرد بوجود الوجدانية في الذات والصفات والأفعال الذي تنزه عن الشريك والشبيه والنظير والمثال، وبعد فقد سألتني بعض المحبين شدد الله قلبي وإياهم بأنوار اليقين..."

وأخره: "...هذا آخر ما قصدته من هذا الشرح المبارك المفيد، فنسأله سبحانه أن ينفعنا به دنيا وأخرى على من اعتنى به من إخواننا المومنين، وأن يجعلنا بفضلته مع الشيخ ومع سائر الأحبة في أعلى عليين بجاه مولانا وسيدنا ونبيينا محمد صلى الله عليه وسلم..."

وقد كتب هذا الكتاب بخط الكتاب بخط مغربي دقيق، وكراريسه خماسيات (أي أن كل كراسة منها مكونة من خمس صحائف مزدوجة)، قياسه 21 x 15 سم، وعدد أوراق المجموع الذي يوجد فيه أربعمئة ورقة، غلافه أصيل ذو لسان يمتد في دفته اليسرى، وأركانه مزخرفة بشكل هندسي، وتتوسط الجلدة الأصلية للسفر ترنجة مرشومة في دفته اليمنى واليسرى. أما تركيب صفحاته فهو منسجم مع القاعدة المتعارف عليها في دول المغرب العربي من تدرج من الطرة الداخلية، ثم العليا ثم الخارجية ثم السفلى... أما الزخرفة النصية فلا تكاد تتجاوز بعض التغييرات اللونية في كتابة بعض الكلمات... وقد وجدت في طرر النص

المدرّوس بعض الهوامش النصية من مثل هذه الأبيات التي وقفت عليها في نهاية الكتاب:

يا ناظرا في الخط كيف صورا ادع لنا يا سيدي بالمغفرة
فإن بقي في الخط شيء فاعدلا لأنني كتبتة مستعجلا
وإن وجدت عيبا أو تصحيحا أصلحه يا أخي وكن ظريفا
أما مادة الكتابة في المجموع كله فهي الورق القماشي، وذلك لصموده أمام
حدثان الدهر وظروف الصيانة الرديئة الموجودة في مكتبة تيدسي.. ولملمسه اللين
الذي ينزاح عن الانكسار والتآكل.

كتاب تبصرة الحكام في أصول الفقه ومناهج الأحكام³⁶ لإبراهيم بن

علي المشهور بابن فرحون: وهو أيضا كتاب ضمن مجموع، جاء في أوله برنامج
الكتاب وهي عادة مشرقية في ضبط المحتويات قلما نجدها في مخطوطات الغرب
الإسلامي. وكتبت في البرنامج عناوين الفصول والأبواب .

ويليه في المجموع كتاب العلوم الفاخرة في النظر في أمور الآخرة لعبد الرحمن
بن محمد الثعالبي، ومنظومة في الفرائض لأحمد بن سليمان الجزولي، أوله: "قال
الشيخ الإمام المتفنن صدر المدرسين وعهدة المستفيدين وموضح الدلائل وكاشف
غوامض المسائل القاضي برهان الدين إبراهيم بن علي الشهير بابن فرحون
اليعمري المدني برد الله ضريحه... أما بعد، فإن الله أكمل بنبيه محمد صلى الله
عليه وسلم دينه القويم وهي به من شاء على الصراط المستقيم وأسس شرعه
المطهر على أحسن الطريق وأحكم القواعد وشيده بالتقوى والعدل..."

وآخره: "كامل تبصرة الحكام في أصول الفقه ومناهج الأحكام بحمد الله وحسن عونه وتوفيقه الجميل بمنه الكريم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما..."

وجاء في حرد متنه في شكل مثلث: "والحمد لله رب العالمين اللهم صل على سيدنا محمد وآله وصحبه وأزواجه وذريته وتابعيه إلى يوم الدين عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته آمين..."

وكتبت النسخة بخط مغربي دقيق وملون، مقياسها 32 x 23 سم، واستعملت في ترقيمها وسيلتان للترقيم؛ فهناك أولا التعقيبة المعهودة في أغلب المخطوطات، وهناك إلى جانبها ترقيم عددي في الركن الأعلى من كل صفحة. وقد حافظ المجموع على تفسيره الأصلي الذي يحيل على طريقة تفسير الكتب في بلدان المغرب العربي، فقد أفاض أجدادنا القول في هذا الباب، ولا نعدم في التاريخ كتباً جلييلة في هذه الصنعة³⁷

وصورة هذا الغلاف دفتان سميكتان مكسوتان بجلدة رقيقة مرشومة بتزاويق هندسية، وهناك في كل جهة من الدفتين ترنجة بنية اللون، وأركان مذهبة، ولسان في الدفة اليسرى. ومن جهة أخرى، لاحظت أن المجموع مكون من سداسيات؛ وهي الكرايس المكونة من ست صحائف مزدوجة. وعدد أوراقه 450 ورقة، أي ما مجموعه خمس وسبعون كراسة ورقية.. أما مادة الكتابة فهي ورق خشبي³⁸ سريع التدهور، الأمر الذي يفسر لنا حجم الضرر الذي لحق بالمخطوط في صورته العامة.

وفي إطار التركيب نقول بشكل عام إن كل المخطوطات المدروسة قد كتبت على مادة الورق وهي المادة التي استعملت في كل أقطار العالم العربي بعد استعمال مادة الرق في القرون الهجرية الثلاثة الأولى لاسيما وأن العرب هم أول من أدخل صناعة الورق إلى إسبانيا وبلاد الروم .

ثم إننا نلاحظ أن كل المادة المدروسة قد كتبت بخطوط مغربية مختلفة عن الخطوط المغربية الفاسية أو السوسية أو البدوية كما هو الأمر بالنسبة للنسخة الأصلية من عقيدة السنوسي التي تقترب من الخط التنبكتي، وكما هو الأمر أيضا بالنسبة للخط الذي كتبت به نسخة " الجزائرية في العقائد الإيمانية" الذي تظهر في هجاءه الصحراوية والمغربية بقايا آثار الخط الأندلسي... ونلاحظ أيضا أن كل النسخ مزودة في ترقيمها بالرقاص، وهذا أمر مألوف في كل بقاع العالم العربي، إلا أننا نلاحظ أن هناك نسخة من المادة المدروسة وهي " تبصرة الحكام ... " قد استعمل فيها نظامان للترقيم ؛ التعقيية ،والعد بالأرقام، وهذا الأمر مألوف فقط في المخطوطات المكتوبة بالحرف اللاتيني³⁹ مما قد يعني أن ناسخها كان على معرفة بخصوصيات المخطوط الإفريقي أو الرومي .

ونلاحظ من جهة أخرى سيطرة الخماسيات Quinions في صناعة الكرايس على أغلب المادة المدروسة. ووجود الخماسيات بكثرة في تراثنا المخطوط أمر سبق أن أكدّه المستشرق الفرنسي المشتغل بالتراث الإسلامي " فرانسوا ديروش"⁴⁰ .

وبخصوص تركيب الصفحات la mise en page فنحن نلاحظ احترام كل صحائف المادة المدروسة لقياسات الهوامش المتعارف عليها والمذكورة آنفا ، ولا يمكن أن يحدث ذلك إلا إذا كانت صناعة المخطوط توظف المسطرة في تعيين المساحة المكتوبة. ولا نكاد نتبين آثار الخزم⁴¹ في النسخ المدروسة، وهذا يؤكد احتمال عدم استعمال هذه التقنية في تراثنا العربي الإسلامي.

أما بخصوص الترتيب l'imposition فلم ألاحظ أبدا آثار التماسك على إحدى الصحائف المزدوجة للأسفار المعنية، ويفضي بنا هذا إلى القول إن الكرايس كانت تطوى وتقطع قبل أن تكتب من طرف الناسخ .

أما بخصوص النممة والزخرفة في هذه المادة فهي شبه غائبة لأن هذه النسخ هي مخطوطات عادية وليست خزائنية أو ملوكية والمادة مفتقدة أيضا للهوامش الذاتية الشاردة والهوامش النصية التي هي ذات أهمية قصوى في تعقب أصل المخطوط من مثل الإجازة، والتحجيس، والمناولة، والسماع، وعقود البيع والشراء...

وبالنسبة للفوائد التي وقفنا بها في صغرى السنوسي فهي تؤكد الصورة الأركيولوجية القيمة التي تضاف إلى الخطوط على أساس أنه ليس فقط محتوى صميما للمعرفة، وإنما هو بالأساس قطعة أثرية شاهدة على حضارة بائدة ..

الهوامش :

1. تاريخ خزائن الكتب بالمغرب، ترجمة مصطفى طوي، منشورات الخزانة الحسنية بالرباط:

2003م ص: 139

2. قال عنها المختار السوسي رحمه الله: " ورأيت بعضها من الكتب التي أخرجت إلينا متصفحا ، فرأيت منها كتباً كانت تعد من النوادر الغريبة .. وقد قيل لي إنها تقارب ألف دفتر.." سوس العالمة ، المختار السوسي مطبعة فضالة المحمدية 1380 هـ ص : 173
3. سوس العالمة ص : 148
4. لم أتوفق في زيارة المكتبة على عهد فقيهاها الأسبق الحاج العربي الأنصاري التيدسي بالرغم من سفري إلى قرية تيدسي وإلى الزاوية تحديدا ، ولم أتمكن من زيارتها إلا بعد استعاني بمعارف قيمها الفقيه المصطفى بن العربي التيدسي .
5. فقيه مدرسة إيغلان بسوس التي تعد مكتبتها من كبريات خزائن هذا القطر فقد كانت تعد دفاترها بألف سفر إلى حدود منتصف القرن العشرين أي في الزمن الذي مات فيه مسعود الوقاوي رحمه الله .
6. المعسول المختار السوسي ، مطبعة النجاح ، الدار البيضاء : 1960 م ج : 1 ص : 68
7. القرآن الكريم، سورة الشعراء الآية :226.
8. وثيقة موجودة عند الفقيه المصطفى بن العربي التيدسي
9. حققته الباحثة نجاة أبوية في إطار رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في الآداب .
10. المخطوط رقم : 817
11. المخطوط رقم : 800
12. المخطوط رقم : 226
13. المخطوط رقم : 70
14. المخطوط رقم : 87
15. المخطوط رقم : 243
16. المخطوط رقم : 205
17. المخطوط رقم : م 206 الكتاب : 1
18. المخطوط رقم : م 206 الكتاب : 5

19. المخطوط رقم : 389
20. أحمد بن عبد الله الجزائري الزواوي فاضل مالكي من قبيلة زواوة . كانت إقامته بالجزائر توفي سنة 884 هـ .. الأعلام للزركلي بيروت ط: 8 ج : 1 ص: 160.
21. ولد ونشأ بالمدينة لكن أصله مغربي الأعلام ج : 1 ص: 52
22. هو عالم تلمسان في عصره وصالحها ت : 895 هـ 1490 م
23. معجم مصطلحات المخطوط العربي (قاموس كوديكولوجي) أحمد شوقي بنين ومصطفى طوي، منشورات الخزنة الحسنية الرباط ، الطبعة الثالثة مزيدة ومنقحة 2005 ص : 302.
24. هي عملية الانتساخ والتصحيح والتفسير وسائر الشؤون المكتبية والدواوين بلغة ابن خلدون في المقدمة دار الكتب العلمية، بيروت ،لبنان : 1413 هـ 1993 م ص: 334
25. عادة ما تكون الطرة الداخلية petit fond هي الطرة الصغرى ضمن طرر النص ، تليها طرة الرأس ثم الطرة الخارجية وأخيرا طرة الذيل أو الطرة التحتانية بتعبير الرفاعي في كتابه : " حلية الكتاب "
26. يقصد بالنساخت في علم المخطوطات كل ما كتب في المخطوط وليس من النص بمفهومه الدقيق. ويقابله باللغة الفرنسية مصطلح : transcription
27. هما إمامان لمسجدين بأكادير، وطالبان باحثان درسا عندي في السنة المنصرمة مادة الفهرسة، وأنجزا برفقة الطالب الحسين أبي الوقار عرضا تحت إشرافي عن خزنة تيدسي الواقع والآفاق ، جامعة القرويين ،كلية الشريعة، سلك ماستر الشريعة " المذهب المالكي تراثه وأصوله وآفاق الاجتهاد فيه " . السنة الجامعية: 2006- 2007 م ..
28. كلمة الخط المغربي عامة تنطبق على كل خطوط المغرب العربي. فنحن نقول : خط مغربي جزائري، وخط مغربي تونسي، وخط مغربي صحراوي، وخط مغربي فاسي، وخط مغربي سوسي إلخ ..
29. المخطوط رقم : 206

30. المخطوط رقم : 203
31. ينظر : Les Manuscrits. Alphonse Dain- Les belles lettres – Troisième édition – Paris 1975 P169.
32. المخطوط رقم : 206
33. هي لوح تلصق به خيوط على عدد السطور المطلوبة، وتتناسق فيما بينها حتى تكون متساوية الأبعاد، ثم يوضع فوقها الورق العني ، ويضغط عليه باليد حتى ترتسم فيه السطور الملصقة على المسطرة والمسطرة أجود ما تكون من الأبنوس ومن البقس .. معجم مصطلحات المخطوط العربي قاموس كوديكولوجي ، أحمد شوقي بنين ومصطفى طوي ط: 3 ص : 332 .
34. صناعة المخطوط العربي من العصر الوسيط إلى الفترة المعاصرة ، منشورات كلية الآداب بالرباط : 1991م . وهو مونوغرافية فريدة من نوعها في أسامي الوراقين في الفترة المذكورة ، حبذا لو صنعت على غرار مونوغرافيات أخرى لكل البلدان الإسلامية وفي جميع العصور حتى يتسنى لعلماء المخطوطات الارتكاز على منطلقات علمية دقيقة .
35. محمد بن إبراهيم بن عمر بن علي .. (توفي سنة 897 هـ 1492 م) كان من تلامذة محمد بن يوسف السنوسي التلمساني إذ لازمه وصنف في مناقبه كتاب : " المواهب القدوسية في المناقب السنوسية " .. الأعلام ، ج: 5 ص : 301.
36. النسخة رقم : 243 وهناك نسخة أخرى انتهت من المكتبة إلى الخزنة الناصرية نسخها محمد بن أحمد الجزولي المراكشي
37. ينظر بهذا الخصوص: التيسير في صناعة التفسير ، لبكر بن إبراهيم الإشبيلي، مدريد 1960 ، والسفياني ، صناعة تفسير الكتب وحل الذهب، فاس 1919م.
38. يمكن التمييز بين الورق الخشي والورق القماشي بسهولة بواسطة الملاحظة الأولية لمادة الكتابة ؛ فالورق الخشي عادة ما يكون ضعيفا من مادة السيلولوز وهو لذلك يكون سريع التآكل والتدهور ويكون ملمسه خشنا وقابلا للانكسار ، أما الورق القماشي فهو

بخلاف ذلك غني بمادة السيلولوز ، وهو لذلك يكون شديد المقاومة والصمود ، ويكون ملمسه ليّنا ..

39. ينظر التقاييد الإجرائية من كتاب: "مدخل إلى علم المخطوط " لجاك لومير، ترجمة

مصطفى طويي ، منشورات الخزانة الحسنية مراكش: 2006 م ص: 277.

40. Al Furquàn . the codicology of the islamic manuscripts .

Islamic Heritage foundation London 1995 p 29

41. الخزم أنواع كثيرة ؛منها خزم التجليد، وخزم التسطير ،وخزم صناعة الملزمة، وخزم تركيب

الصفحات .. ينظر : معجم مصطلحات المخطوط العربي ..بنبين وطويي، ص: 145.